الاستفهام البلاغي

في كتابي (العلم والأدب) من صحيح البخاري

الباحثة: الدكتورة: ضحى عادل بلال

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

المملكة العربية السعودية - جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل – كلية الآداب – قسم اللغة العربية

معارة من جامعة تشرين - سوريا

الاستفهام البلاغي في كتابي (العلم والأدب) من صحيح البخاري.

يعد الاستفهام أحد أهم الأساليب الإنشائية التي كان لها حضور لافت في الحديث النبوي الشريف ؛ لما له من أثر كبير في التأثير والإقناع اللذين يتطلبهما تبليغ الرسالة ونشر الدعوة، وتمكينها في النفوس والعقول معاً، ومن هنا فقد هدف البحث من خلال المنهج التحليلي إلى دراسة الاستفهام البلاغي في كتابي (العلم والأدب) من صحيح البخاري بوصفه – الاستفهام البلاغي– منهجاً تعليمياً وتأديبياً تتفاعل في نسجه تقنيات بلاغية؛ لإنجاح عملية التواصل الإبلاغية عبر الاستحواذ على العقول والنفاذ إلى شغاف القلوب.

ويقوم البحث بـ:

١- الوقوف على الأغراض البلاغية للاستفهام، والغوص في دقائقها وأسرارها ؛ متوخياً الكشف عما تميزت به من نكت بلاغية، ولطائف دقيقة جعلته يحقق الإقناع العقلي والتأثير الوجداني في المتلقين.
٢- رصد ما تضمنه أسلوب الاستفهام من تغيّرات تركيبية حملّت المعنى الأصلي معانٍ مجازية استدعاها المقام ومقتضى الحال، والمقصد من القول.
٣- إبراز القيم التعبيرية للاستفهام، والتي أسهمت في تشكيل المعنى ضمن الصياغة الكلية للحديث النبوي الشريف.

Abstract

Rhetoric Questions in Sahih Bukhari: Focus on the Books of "Knowledge" and

"Good Manners"

Rhetoric Interrogation is one of the most important types of sentences in Arabic Language. It forms an integral part in the glorious Prophetic Hadiths. It is used for making emphasis, impressing addressees, and persuading them. For that reason, rhetoric questions are important strategy for the best delivery of information about Islam, and for instilling knowledge in the recipients' minds and hearts. This research paper aims at analyzing rhetoric questions in the books of " Knowledge" and " Good Manners" of Sahih Bukhari, focusing on them as a teaching and preaching method that includes a lot of rhetoric strategies to impress recipients and make preaching and communication with them a success.

Objectives:

١- Illustrating the rhetoric purposes of questions, propping their intricate functions and unveiling their mysteries, with the aim of revealing their rhetoric beauty and specific characteristics that help in persuading recipients and impressing them.

٢- Illustrating the syntactic forms of rhetoric questions in Arabic to reveal how they can add metaphoric meanings to the original structures of interrogation in specific contexts.

٣- Revealing the semantic aspects of rhetoric questions to show how they played an important role in making sense of the discourse of the glorious Prophetic Hadiths.

المقدمة:

الحمد لله الذي علّم بالقلم، عّلم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على خير من نطق فأسمع، وأبان وأقنع، وعلى آله وصحبه وسلم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

مثّل الحديث النبوي الشريف قمة البيان البشري بعد البيان الإلهي المعجز، إذ أفاض الله عز وجل على نبيه الكريم تأييداً بالحجة، وتوفيقاً بالمنطق مكّنه من تملّك ناصية اللغة، وفهم أسرارها والإحاطة بمراميها، والقدرة على النفاذ إلى دقائقها، وعليه فقد جاء البيان النبوي آية في الفصاحة والبلاغة، وقد وصف الجاحظ عميد البلاغة الكلام َالنبوي قائلاً:" لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصداً لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معناً، ولا أبين فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم "[1]، إنها وبلا شك منحة إلهية قيدت له جوامع الكلم، الذي تضمن خصائص تعبيرية بليغة، ومقومات فكرية سامية، وجوانب خلقية مؤدّبة، وجهت الفكر البشري إلى حقائق الدين ومقتضياته العقلية والتشريعية والخُلقية، لتحقق

١ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب،ج ٢٢١/٢.

الوظيفية السامية للرسول الكريم في تبليغ الرسالة السماوية الخالدة وبيانها للبشر كافة.

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل تبليغ الدعوة مسالك عدة منها: إثارة نفوس المتلقين، واستمالتها، التماساً للإقناع، ولتحقيق هذه الغاية طوّع أسلوب الاستفهام من أجل تفعيل التواصل مع المتلقين، فمرة كان يستفهم ليخاطب العقل ويحثه على التفكر لاستنباط السنن الكونية متغلغلاً إلى خفايا النفس عن طريق العقل، ومرة أخرى يخاطب الروح بآمالها وآلامها وتطلعاتها ليحرك الجانب الوجداني ويستثيره لينفذ إلى الجانب العقلي من خلال النفس، ومرة ثالثة كان يستفهم ليوجه الذهن إلى غايات تعليمية سامية، وأهداف تربوية ووعظية جليلة، ومن هنا فقد تضافرت دلالات الاستفهام البلاغي في الخطاب التعليمي والتشريعي في الحديث النبوي الشريف ؛ لتشكّل ملمحاً بلاغياً مهماً لم يقتصر في مقصده على الدلالة الحقيقية فقط – وهي طلب الفهم – وإنما تجاوزها إلى دلالات بلاغية امتزجت فيها غاية الإفهام بمقومات بلاغية جمالية ذات بعد تأثيري وإقناعي معاً.

وقد تخيّر هذا البحث استشراف الأغراض البلاغية للاستفهام في الحديث النبوي الشريف في كتابي (العلم والأدب) من صحيح البخاري، والكشف عن خصوصية استعمالاته المجازية التي تضافرت دلالاتها لتحقيق الهدف الأسمى وهو الهداية، وتعليم أسس العقيدة، وتثبيتها في العقول وتأديب النفوس من خلالها، وقد وقع اختياري على أسلوب الاستفهام موضوعاً للبحث لما يمتلك هذا الأسلوب الإنشائي من طاقات تعبيرية تعمق التواصل مع الآخرين، والتحاور

معهم واستمالتهم، فكم نحن اليوم بحاجة إلى تسليط الضوء على المناهج الحوارية بوصفها أهم ركائز أمن المجتمعات وأمانها، وهل هناك كتاب أكمل بياناً، وأعجز بلاغة بعد القرآن الكريم من الحديث النبوي الشريف ليقدم لنا أمثلة صادقة للحوار البنّاء، والانصهار المجتمعي الذي أمد العالم بفيض من العلم والأدب لن ينفذا ما دمنا منكبين على تدارس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واستشراف ما فيهما من خفايا المعاني ودقائق الأسرار وعظيم التوجيهات والإرشادات.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يبدأ بمقدمة توضيحية أشارت باقتضاب إلى أهمية البحث، ثم المدخل وفيه مهاد عام في مصطلح الاستفهام ودلالته، ثم قدم البحث دراسة بلاغية لبنية الاستفهام في الأحاديث النبوية التي تعمدت الباحثة إثباتها كاملة ؛ لترد ضمن سياقها، والذي يعد مرجعاً لا يمكن من دونه الوقوف على المعاني البلاغية لبنية الاستفهام واستنباط مقاصدها التبليغية التي حرص النبي الكريم على تمكينها في النفوس.

ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام: أن البحث لم يبسط القول في الجانب النظري للاستفهام من حيث النشأة والتطور والأدوات ؛ لأن هذا الموضوع أشبعته أقلام الباحثين تنظيراً في الجانبين النحوي والبلاغي.

المدخل: مهاد عام في مصطلح الاستفهام ودلالته.

الاستفهام مصدر الفعل (فهم)، ومعناه معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء: عقلته وعرفته. وفهمت فلانا وأفهمته، وتفهم الكلام: فهمه شيئا بعد شيء. وأفهمه الأمر وفهمه إياه: جعله يفهمه، و استفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيما[١]، وذكر ابن فارس أن " الفاء والهاء والميم علم الشيء "[٢] ، وأورد الجوهري في دلالة المصطلح : فهمت الشيء فهماً وفهمانية، وفلان فهم، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً [٣]، فالاستفهام لغة:هو طلب السائل أن يخبره المسؤول عمَّا يسأل، والهمزة والسين والتاء إذا زيدت أوال الفعل الثلاثي دلت على الطلب[٤]، والاستفهام اصطلاحاً هو: " استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين شيئين أو لا وقوعها فحصولها هو التصديق وإلا فهو التصور "[٥].

---

١ – ينظر: لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين، ط٣، دار صادر: بيروت، ١٤١٤ هـ، مادة (فهم).

٢ – معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي: مصر، ١٤٠٢هـ–١٩٨١م ج٤ مادة (فهم)

٣ –ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان،١٤٠٤هـ–١٩٨٤م، ط٣،مادة (فهم)

٤– ينظر: شرح المفصل، موفق الدين بن علي بن يعيش الموصلي، قدم له ووضع هوامشه: إميل يعقوب، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، د. ت، مج٥،ص٩٩

٥– التعريفات، الجرجاني علي بن محمد الشريف، د. ط، مكتبة لبنان: بيروت، ١٩٨٥م. ص١٧–١٨.

والاستفهام عند البلاغيين: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة مخصوصة، ولأدوات الاستفهام عند البلاغيين وظيفة دلالية ترتبط بالمقام والسياق وقرائن الأحوال من لفظية ومعنوية.

وقد وقف معظم الدراسين الأوائل عند الاستفهام تحت مسميات مختلفة منها: الاستخبار والسؤال والاستعلام، وفصّلوا القول في الحدود بينها وبين الاستفهام، بوصفها مصطلحات بلاغية تؤدي معنى الاستفهام إلا أنها تمتاز عنه بفروق تحدثوا عنها ، ومن ذلك قول ابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب): إن الاستفهام هو الاستخبار، إذ حصر الكلام في أربعة أنواع: أمر وخبر واستخبار ورغبة، و جعل الاستفهام بمعنى الاستخبار[١]، وكذلك ساوى ثعلب بين الاستفهام والاستخبار، وأما ابن فارس فقد أولى أسلوب الاستفهام عناية خاصة فجعله المبحث الثاني من باب (معاني الكلام)، وأفرد له قسماً خاصّاً عرض فيه تعريفه، وسبب تسميته والمعاني البلاغية التي حققها خروج صيغه عن أصل وضعها، وقد أطال في استقصائها حتى أوصلها إلى خمسة عشر معنى[٢]، وأما من جهة الاصطلاح فقد ساوي بين الاستفهام والاستخبار، فالاستخبار عنده: "طلب خبر ما ليس عند المستخْبِر، وهو الاستفهام"[٣]، غير أنَّه بيّن بأن هناك

١ – ينظر: أدب الكاتب، ابن قتيبة محمد بن عبد الله بن مسلم، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤. مصر:، مطبعة السعادة، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م، ص٤.

٢ – ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، تحقيق: فاروق الطباع، ط١، مكتبة المعارف، بيروت: لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٨م،.ص١٨٦.

٣ – المصدر نفسه والصفحة نفسها.

من يفرق بينهما فقال: " وذكَر ناسٌ أنَّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرقٍ، قالوا: وذلك أنَّ أولى الحالين الاستخبار؛ لأنك تستخبر فَتُجاب بشيءٍ، فرُبَّما فَهِمْته، ورُبمَّا لَم تَفهمه، فإذا سألت ثانيةً، فأنت مُستفهمٌ، تقول: أفهمني ما قلته لي، قالوا: والدليل على ذلك أنَّ الباري – جلَّ ثناؤه – يوصَف بالخبر ولا يوصَف بالفَهْم[١]، وقد وافقه السيوطي في المساواة بين الاستفهام والاستخبار[٢]، وبنظرة بلاغية دقيقة ميز العسكري في كتابه (الفروق اللغوية) بين السؤال والاستفهام إذ بيّن أن: " الاستفهام لا يكون إلا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه، وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم ويجوز أن يكون السائل يسأل عما يعلم وعما لا يعلم"[٣]، فالاستفهام مقيد بالسؤال عما يجهل السائل ليعلمه، أما الاستفهام فيصح أن يطلق على طلب المعرفة بمعناها الحقيقي بالإضافة إلى إيحائه بدلالات مجازية، وكذلك عمد صاحب الأمالي إلى التفريق بين الاستفهام والمصطلحات الدالة عليه ، فجعل كل المصطلحات تدال على الدال نفسه، إذ قال:" الاستخبار طلب الخبر، والاستفهام طلب الفهم، والاستعلام طلب العلم " [٤].

والحق أن التناول البلاغي للاستفهام تجلى عبد القاهر الجرجاني في ضوء حديثه عن نظرية النظم، إذ بذل عناية واضحة في دراسته من الوجهة البلاغية

---

١ – المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٢ - ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق: أحمد بن علي، د. ط، دار الحديث، القاهرة،١٤٢٨هـ-٢٠٠م، ج١٩٩/٣

٣ – الفروق اللغوية، الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت: لبنان، ١٩٩٧م، ص٢٨–٢٩

٤ - الأمالي، ابن الشجري هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة، تحقيق: محمود محمد الطحاني، مكتبة الخانجي: القاهرة، ج٤٠٠/١.

والتي تتعلق بالتقديم والتأخير حيث قال: "... ومن أبين شيء في ذلك – يقصد التقديم والتأخير– الاستفهام بالهمزة، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت (أفعلت؟) فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه"[١]، وأما السكاكي فقد عرف الاستفهام حيث قال هو: " طلب حصول في الذهن " [٢]، إذ بيّن أن الاستفهام يتشكل في الذهن قبل أن يكون واقعاً في الخارج وتحدّث حديثاً مفصلاً عن أسلوب الاستفهام فأفرد له مبحثاً مستقلاً وأشار إلى المعاني المجازية، وذكر منها الاستخفاف، والتحقير، والتعجب، والاستبطاء والإنكار والتهديد، والتوبيخ، والتنبيه، والتقرير[٣].

وقد تميز الزمخشري عن سابقيه في حديثه عن الاستفهام بأن تحدث عن خروج الاستفهام المجازي إلى غرض آخر، إذ قال: إن الجواب هو المقصد من السؤال، وذلك لأن للجواب أثراً في سياق الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[٤] والغرض

١ – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر، القاهرة، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة، بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص١١١

٢ – مفتاح العلوم، السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، ط٢، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، ص٣٠٨

٣ – ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٤ – سورة مريم، آية: ٨

منه هنا توكيد المعنى وإزالة أي توهم لدى السامع[١]، فالزمخشري لم يكتف بالنظر إلى نمط التأليف، وإنما بحث في الدلائل والإشارات السياقية للنص القرآني، فكانت وقفاته البلاغية في النص القرآني متميزة ، علماً أنه لم يفرد باباً للاستفهام كمصطلح بلاغي، وأما الخطيب القزويني فقد عدّ الاستفهام نوعاً من أنواع الطلب، و تحدث عن الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام فقال: "... ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب المقام.. [٢] "، ثم مثل لهذه المعاني بأمثلة تؤيد آراءه.

إذاً نستطيع القول من خلال ما سبق: إن الاستفهام الحقيقي هو طلب العلم بالشيء غير المعلوم سواء أكان اسما أو حقيقة او صفة أو عددا، أو هو الاستخبار الذي قيل فيه: طلب خبر ما ليس عند المتكلم، أو هو طلب خبر ما عنده، ولكن لم يفهم حق الفهم، فطلب فهمه من المخاطب، فإذا سئل عنه ثانيا كان استفهاما، أي أن المتكلم يطلب من المخاطب أن يحصل لديه فهم دقيق عن أمر لم يكن حاصلا قبل سؤاله عنه[٣]. غير أن علماءنا الأوائل تنبهوا إلى أن الاستفهام بأدواته المتصدرة لا يقتصر على المعاني الحقيقية التي تتطلب جواباً من السائل، وإنما قد يشف عن إيحاءات نفسية يهدف المستفهم إلى توجيه المخاطب إليها دون أن يكون طلب الفهم مقصداً لاستفهامه ؛ وبهذا يخرج

١- ينظر: الزمخشري، الكشَاف، ج٢، ص٥٠٣

٢ - الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني محمد بن عبد الرحمن جلال الدين، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٣، دار الجيل: بيروت، د. ت، ص٦٨

٣- ينظر: جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب د. ط، ٢٠٠٥م، ص ١٣٦.

أسلوب الاستفهام عن دلالته الأصل التي وضع لها إلى فضاء من المعاني البلاغية التي يشف عنها السياق والمقام وقرائن الأحوال، وقد أفاض البلاغيون والمتكلمون في ذكر تلك المعاني والاستشهاد عليها، ومنها: النفي، التعجيب التقرير، التوبيخ، التعظيم، التحقير...، وهذه المعاني البلاغية هي التي يحاول هذا البحث تتبعها في كتابي (العلم والأدب) من صحيح البخاري من خلال الدراسة التطبيقية.

الأغراض البلاغية للاستفهام:

١- التقرير والتثبيت: وهو حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الكلام، حتى لكأن مضمون الكلام المطلوب تقريره أصبَح عند المخاطب مستقرًّا ثابتًا، فتقريرُ الإنسان بالشيء جَعْلُه في قراره، وقرَّرتُ عنده الخبرَ؛ حتى استقرَّ[١]، ويُقال: "أقررتُ الكلام لفلان إقرارًا؛ أي: بيَّنتُه حتى عَرَفه"[٢]

وقد توخَّى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الدَّلالة في بعض استعمالاته لأسلوب الاستفهام كما في الحديث النبوي الشريف المروي عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي

١- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة قرّ.
٢ - المصدر نفسه، والمادة نفسها.

النَّارِ» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[1]

يبين هذا الحديث فكرة رحمة الله بعباده، وهي فكرة معنوية يمكن استشعارها، ولا يمكن معاينتها رأي العين ؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد لهذه الأمر المعنوي أن يستقر في النفوس، ويتمكن كأشد ما يكون التمكن ؛ لما له من أثر كبير في اطمئنان نفوس العباد ورضاهم، وتحفيزهم على الطاعة التقط موقفاً مؤثراً نادر الحدوث لأم فُجعت بفقدان ولدها، وهي امرأة من السبي فقدت ولدها، واندفعت تبحث عنه، وقلبها مملوء بالخوف العظيم عليه، والشوق الكبير إليه، وكانت كلما وجدت طفلاً يبكي أرضعته ؛ لأن رحمة الأمومة أفاضت ثدياها باللبن، إلى أن وجدت صبيها بعينه، فأخذته وألصقته ببطنها من فرحها بعثورها عليه[2].

وكان السؤال الذي طرحه النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة الذين عاينوا هذا الموقف عن تصرف هذه المرأة بعد أن وجدت ولدها هل يمكن أن تطرحه بالنار ؟ طبعاً الجواب معروف لا يحتمل الشك والتردد، إنه (لا) ولكن لحرص الصحابة أن يبلغوا تمام الإفادة قيدوا جوابهم بعبارة " وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ

١ – صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ، ج٨/٨، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث ٥٩٩٩.

٢ – ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى، دار إحياء التراث العربي: بيروت، د.ت، ج١٠١/٢٢.

لاَ تَطْرَحَهُ "، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهمه هذا التقييد، وإنما أهمه أن يقروا بمضمون الاستفهام نفياً، وباستبعاد حصول الأمر المستفهم عنه تمام الاستبعاد ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام هدف من وراء الاستفهام عن أمر حسي مُشاهد رأي العين للصحابة – وقد أثر فيهم– تقرير حقيقة معنوية وترسيخ فكرة رحمة الله بعباده من خلال الدلالة على المشَاهد بالبصر مع العلم أنه الأضعف في تلك المقاربة، ولكن الرسول الكريم اتخذ من هذه الصورة الحسية وسيلةً لانتزاع إقرار منهم على أمر هو أعظم و آكد، وقد وُظفت الجملة الاستفهامية في هذا السياق لتعزز الأبعاد الإقناعية و التمكينية لرحمة الله بعباده، لما تتصف به من حركة وإثارة، واستحضار للجانب العقلي و الوجداني معاً، وليتسق مقصد الكلام مع نظمه استعمل صلى الله عليه وسلم فعل (ترون) بدل (تظنون) ؛ لأنه أنسب لمقام التثبت والإقرار ؛ لما يضفيه عنصر المشاهدة من تأكيد، وقد شكّل اسم الإشارة رابطاً حسياً بين السلوك الحركي للمرأة، وبين الفعل المنطوق ليشف عن دلالتي الإقناع والتأثير الوجداني، واللافت اختيار لفظة (تطرح) بدلاً من (ترمي) إشارة إلى شعور القسوة الذي يجب أن تتصف به من تقوم بهذا الفعل، وطبعاً محال أن تقوم به الأم لاسيما وأن الطرح سيكون في النار، وبعد أن أقر الجميع بالنفي لما تم السؤال عنه، تحول النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أعمق وأسمى، وعقّب على إجابتهم بأن الله أرحم بعباده منها، وجاء اسم التفضيل في الحديث الشريف ليعطي انطباعاً ببلوغ الذروة في الرحمة وتمييزها أكمل تمييز، ومن ثم جاءت الإضافة في (عباده) لاستشعار القرب الشديد بين الله وعباده وما يترتب عليه من رحمة، والجدير بالتنبيه عليه: أن الاستفهام

بهذا التمثيل الحسي لم يقتصر على دلالة التقرير والتثبيت فقط، وإنما حمل في طياته دلالات ممزوجة بالإخبار والإعلام بسعة رحمة الله بعباده عن طريق التشويق إلى الخبر المنتظر، والاستبعاد لأمر يكاد يكون حصوله متخيلاً أو مستحيلاً، وبهذا شكّل الاستفهام دائرة معنوية لدلالات عدة تتآزر في سياق الحديث النبوي الشريف ليشكل وسيلة من وسائل التربية النفسية والعقلية التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ والبيان.

ومن الاستفهام الذي ورد بغرض التقرير المراد به التثبت والتحقيق، و حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده قول النبي في الحديث الذي رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَلاَ تَفْعَلْ، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ عَسَى أَنْ يَطُولَ بِكَ عُمُرٌ، وَإِنَّ مِنْ حَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ»[1]

المفهوم من الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أُعلم عن سلوك عبدالله في العبادة، وأراد بسؤاله أن يقر عبدالله بصحة ما أُعلم به، وفي ذلك حكمة بالغة من النبي صلى الله عليه وسلم كما شرح ابن حجر إذ قال: " لم يكتف النبي بما نقل له عن عبد الله حتى لقيه، واستثبته فيه لاحتمال أن يكون ذلك بغير

١ –صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حق إكرام الضيف في الصوم، ٢٩/٣، رقم الحديث ١٩٧٥

عزم..."[1]، فبادره بالاستفهام قائلاً: " ألم أخبر؟" الْهمزَة للاستفهام، وَلكنه خرج عن الاستفهام الحقيقي، إلى غرض التثبت ومن ثم التقرير، ولكن لو دققنا في مقاصد الحديث لتبين لنا أن الاستدراج والحض والأمر والتنبيه والإفهام هي من الدلالات الثرية للاستفهام التي حملها التقرير والتثبت في طياته لتشف معاً عن الأغراض البلاغية لمقاصد الاستفهام، فالنبي صلى الله عليه يستنكر أمر عبدالله ، ويأمره بالاقتصاد في العبادة حتى لا تنقطع ؛ ويبين له أن عبادة الله لا تقاس بالكثرة وإنما بالدوام، وأن للنفس طاقات لا يجب ألا نكلفها فوق استطاعتها، ويرشده أيضاً إلى ضرورة الموازنة بين أمور الدين والدنيا، ولمزيد من التنبيه ألقى هذه الأوامر مؤكدة بثلاثة مؤكدات، فأنزل المخاطب منزلة المنكر ؛ لما لاح عليه من علامات الانكار المستفاد من الحال التي هو عليها من الانقطاع للعبادة، وأورد التركيب المعبر عن حاجات الدنيا بالتركيب الاسمي لما تتصف به من الثبات والديمومة، وقدم المتعلقات بالحاجات الدنيوية لإبراز أهميتها، ولأن لها الصدارة، وقدم الضمير المتعلق بالمخاطب لتخصيصه وكرر لفظة "حقاً" لأن ذلك آكد في النفس وأثبت وآثر لفظة "حقاً" منكرة للإيحاء بالكثرة أولاً، ولاشتقاقها من الحق وهو أمر مقدس وعظيم لا يعذر من يتهاون فيه مهما كانت الأعذار.

كما ويندرج حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي تكلم به في حجة الوداع عن حرمة الدماء والأموال والأعراض ضمن غرض الاستفهام البلاغي الذي

١ – فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز دار المعرفة: بيروت، ١٣٧٩هـ، ٣٨/٣

عُدل به إلى التقرير، فقد روي عنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، ذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ – أَوْ بِزِمَامِهِ – قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا»، فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»[1].

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم كلامه بسؤالٍ إجابته معلومة عند الصحابة ؛ ولشدة علمهم بالإجابة سكتوا، فقد خيل إليه أن ثمة جواباً آخر ؛ لأنهم فهموا الاستفهام بدلالته الحقيقة، أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد آثر أسلوب الاستفهام من أجل أن يقر المخاطبين بثبوت مضمون الاستفهام ؛ لإلزامهم بما سيترتب على هذا الإقرار، وهو تعظيم المحرمات السابق ذكرها التي قاربت في حرمتها حرمة يوم حرام في بلد حرام في شهر حرام، وقد أفاد تكرار أسلوب الاستفهام بلوغ المتلقين أقصى درجات التنبه واليقظة لما سيلقى عليهم من كلام، كما إن لتكرار لفظتي (حرمة –هذا) أثراً نفسياً في تمكين مضمون ما ترتب عن الاستفهام، وتعظيمه في نفوس المخاطبين لتميزهم أكمل تمييز من خلال ما يمثله اسم الإشارة من معان ثرية أهمها في هذا السياق إبراز المشار إليه واضحاً مميزاً بغرض تعظيمه، والذي تجلى فيما تلى الاستفهام من نظم تضافرت فيه

١ – صحيح البخاري ، كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رب مبلغ أوعى من سامع، ٢٤/١، رقم الحديث ٦٧.

المؤكدات- (إن) والجملة الاسمية و ضمير الخطاب- لتضفي مزيداً من العناية والتنبه للأمر بهدف الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من الفهم والتفهيم ليقر في نفوسهم عظمة حرمة الدم والعرض والمال.

٢- الإخبار والتحقيق:

الإخبار هو الإعلام بالشيء، ويستعمل لإثبات أمر ما؛ لذا ارتبط بالتحقيق في أسلوب الاستفهام لأنه يتجه إلى إطلاع السامع أو تثبيت خبر لديه، أو أنه يرمي إلى كليهما[١]، ومما جاء لهذا الغرض قول النبي في الحديث الذي رواه عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا، لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ» [٢].

معنى الحديث واضح وظاهر وأيده الواقع، فالنبي صلى الله عليه وسلم يُلقي خبراً مفاده أن الناس الموجودين في ذلك العصر لن يعيش أحد منهم أكثر من مائة سنة، وهذا ما حصل فعلا، فآخر الصحابة موتا كانت وفاته سنة عشر ومائة أي بعد مائة عام من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أبو الطفيل بن واثلة[٣]، ويعد هذا الحديث من علامات النبوة ؛ لأنه أخبر بأمر مستقبلي ووقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

---

١ - ينظر: جمالية الخبر والإنشاء، حسين جمعة، ص١٤٤

٢ -صحيح البخاري، كتاب العلم، باب السمر في العلم، ٣٤/١، رقم الحديث ١١٦

٣ - ينظر: عمدة القاري للعينى ، ١٧٦/٢

و بدأ الرسول الكريم حديثه للصحابة بجملة استفهامية فيها إثارة للنفس واستحضار للعقل وتحفيز للانتباه، وبقي الكلام مفتوحاً دون جواب ؛ لأن الصحابة تنبهوا أن الغرض من الاستفهام لم يكن حقيقياً، ولذلك لم يحتج إلى جواب[١]، والمقصود "قد رأيتم ليلتكم هذه"، فالكلام خبري ولكنه خرج عن مقتضى الظاهر إلى الاستفهام من باب الحث على إصغاء السمع إلى شأن المستفهم عنه، وما يترتب عليه من خبرٍ، حرصَ النبي الكريم على إبلاغه للصحابة بقرينة وروده مؤكداً تنبيهاً لأهميته وتأكيداً لثبوت تحققه، إنه قصر الآجال، فلن يعيش أهل عصره آجالاً طويلة كالأقوام السابقة وهذا ما قُصد بقوله: " ممن " أي أن المقصود أهل عصره فقط ؛ ونتيجة لذلك فقد ترتب عليهم أن يجتهدوا في العبادة، وفي هذا أبلغ طرق الوعظ والإرشاد، لأن الحض والحث على العبادة لم يأت أمراً، وإنما تم التذكير به والإرشاد إليه من خلال الاستفهام عن أمر آخر استقر علمه عند صاحب رسالة التبليغ، ومن المؤكد أن التوجيه إلى الفعل من خلال توضيح مسبباته أوقع في النفس وأشد تمكيناً، كما أن النفي (لا يبقى) تآزر مع التوكيد الذي سبقه ليشكلا قوة تعبيرية تقر المستفهمْ عنه في النفوس بوصفه علم اليقين الذي اختص به النبي صلى الله عليه وسلم من الله عزوجل.

٣- التشويق:

التشويق من جنس الشَّوْق؛ وهو حمل النفس على النزاع إلى الشيء، وتهييجها إليه ؛ ولهذا قد يأتي الاستفهام لجذب النفوس وشدها إلى أمر حدث من

١ - ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

قبل، أو أمر يكون فيه خير، فيستعمل لتصور ذلك كله[1]، حينما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته، نحو ما سيلقيه إليه بعد الاستفهام، وتحريك مشاعره إلى أمر محبوب يرغّب فيه السائل.

وقد كثر هذا الغرض البلاغي في الحديث النبوي، وأكثر ما ورد منه قد دخلت فيه همزة الاستفهام على (لا) فاكتسب معنى العرض، أو معنى الاستفتاح بحسب المقام، ولا يَلْزم في الاستفهام الذي ينطوي على التشويق أنْ يُجيب السامع بما يفيد موافقته على إخباره بما يُشوّق إليه، فالقصْد من هذا الأسلوب استدراجُ السامع إلى الانتباه إلى ما يتبع الاستفهام من كلام، وعادة ما يواصِل المتكلم كلامَه دون أن يحصلَ على موافقة سامعه[2]، وقد توخَّى الرسول الكريم معنى الإثارة والتشويق في كثيرٍ من استفهاماته التي في مقام التعليم ؛ لحرصه على أن يكون السامعين في أقصى درجات التيقظ، ومن ذلك الحديث المروي عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ

١ – ينظر: جمالية الخبر والإنشاء، حسين جمعة، ١٤٧

٢ – ينظر: دروس في البلاغة العربية، الأزهر الزناد، نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٢م، ص ١١٧.

عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»[1]

يتبين من الحديث النبوي الشريف السابق ذكره استحباب التحلق في مجالس الذكر والعلم، فقد أخبر النبي عن ثلاثة أشخاص حضروا المسجد، وقد اختلفت مقاماتهم عند الله نظراً لاختلاف تصرفاتهم، فأحدهم دخل مكان رسوله ومجمع أوليائه، وحرص على الانضمام إلى الحلقة، والقرب من النبي صلى الله عليه وسلم، فقربه الله عز وجل من نبيه بأن ضمه الى رحمته ورضوانه، والثاني خشي الخلل في الصفوف حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانضم إلى المجلس، ولكن لم يحرص على القرب من النبي صلى الله عليه وسلم وجلس في المكان الذي تيسر له، فاستحيا الله منه ورحمه ولم يعاقبه، وأما الآخر فانسحب من المجلس فأعرض الله عنه، أي سخط عليه.[2]

الغرض من افتتاح الحديث بـ (ألا) استحضار نفوس المخاطبين، وعقولهم وتنبيههم وتشويقهم لما سيقال، وقوله صلى الله عليه وسلم (أخبركم) يعني أن المخاطب جاهل بالخبر، ولذلك سيكون للاستفهام وقع في نفسه ، فيستميله ويدفعه إلى الحرص على التعلم والرغبة في تحصيله، خاصة إذا كان من أهل الحرص عليه، والصحابة كانوا شديدي الحرص على ذلك، فالرسول استفاد من موقف النفر الثلاثة، ووظفه توظيفاً تواصلياً فعالاً لتعليم الصحابة أمراً مهماً

١ –صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ٢٤/١، رقم الحديث ٦٦

٢ – ينظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ١٥٧/١

من أمور الدين، والذي يختص بحلقات الذكر والعلم، وقد طرح استفهاماً مُفتتحاً بأداة العرض، ثم أعقبه بالجواب ليقرر مضمون الجواب، ويسوقه إلى أعماق النفس لوقوعه موقع المنتظر المتشوق إليه ، وأمَّا سِرُّ اختيار الاستفهام أسلوبًا للتعليم بدلاً من الإعلام المباشر؛ فلأن في التعبير بالاستفهام بلوغًا بالإثارة والشوق في نفوس السامعين إلى أقصى حدٍّ، وفي ذلك تخيُّر أن يقع الخبر على قلب يقظ فلا يغفله، ثم فيه ضمان استمالته صلى الله عليه وسلم النفوس والعقول، فكما يتضح من هذا الحديث أن الإصغاء وصل ذروته، وحين تمكن التشويق من النفوس، ورد جواب النبي صلى الله عليه وسلم مفتتحاً كلامه بـ (أما) التفصيلية ، وهي حرف تبدأ به الجملة للتنبيه والإشارة إلى تحقق ما يذكر بعدها وتأكيد مضمونها، وتقريره [1]، وقد تضمن التفصيل هنا أسلوب الشرط والجزاء، وذلك لوضع النفس أمام الشرط متخيرة الجزاء الإلهي الذي تختاره، ولا يخفى ما لهذا الحديث من فائدة في توجيه انتباه المخاطبين إلى أمور قد يعدونها هينة وهي عظيمة الجدوى كبيرة الأثر في التقرب من الله ؛ لأن الطاعات في أصل صحتها وتضاعفها مرتبطة بالنيات وبها ترجع إلى خالق البريات [2]، فالله هو المطلع على خفايا النفوس.

---

١ – ينظر: جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، علاء الدين الاربلي، تحقيق: حامد احمد نيل، مطبعة السعادة – القاهرة، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م، ص ١٦٨

٢ – ينظر: إرْشَادُ السَّارِي لِشرح صَحِيح البخَاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين ، ط٧،، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ١٣٢٣ هـ، ج١ /٧٧

و من الأساليب الاستفهامية التي تفيد التشويق في الأحاديث النبوية ما نجده في الحديث المروي عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ " فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى قُلْتُ: لاَ يَسْكُتُ[1]

أورد النبي صلى الله عليه وسلم استفهاماً خرج عن مقتضى الظاهر لإرادة التشويق، فأداة العرض(ألا) مع فعل (أنبئكم) توحي بأن الرسول الكريم سيذكر لهم أمراً عظيماً ومقصداً هاماً وخبراً مرجواً العمل به، وفي هذا الاستفهام تشويق للنفس وترغيب بتحصيل الجواب، وهذا ما حصل مع الصحابة بقرينة أنّ الصحابة تشوقوا إلى أن يخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما شوقهم إليه، فقالوا: " بلى يا رسول الله "، فقد استثارهم الرسول الكريم وحفزهم لمعرفة الأمور العظيمة التي يصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها أكبر الكبائر، إذ استعمل اسم التفضيل إمعاناً في تصوير تلك الكبائر التي وصلت إلى أقصى درجاتها في الكبر ؛ وذلك للتنفير منها، وقد انطوت هذه المبالغة والتهويل على جانب تحذيري، وأما الجواب فألقي مؤكداً بالتعبير الاسمي الذي يفيد الدوام والثبات لهذه الموصوفات المخبر عنها، وقد أفاد الحذف تصعيداً للمعنى، والذي ورد في مقام التحذير والتخويف وما يترتب على هذين المقامين من إيجاز، وقد اقتضى مقام

١ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ج٨/٤، رقم الحديث ٥٩٧٦

التحذير من النبي صلى الله عليه وسلم أن يغير من جلسته مع ظهور انفعال على وجهه الكريم ؛ ليكون هذا التغيير الجسماني دليلاً على خطورة الأمر، والذي لشدة حرصه على تجنيب الصحابة الوقوع فيه كرره، وقد أخذ هذا التكرار بقلوب الصحابة وقر في نفوسهم، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكرر إذا أراد الإبلاغ في التعليم أو الزجر أو الموعظة [١].

والمفهوم من نظم الحديث وسياقه أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بتجنب الأمور التي وصفها بأنها من الكبائر وينهاهم عنها، وهي الشرك بالله وعقوق الوالدين وقول الزور، وقد عُدل عن الأمر والنهي المباشرين إلى الاستفهام التشويقي ؛ لأن النفس كلما ترقبت الشيء وتشوقت إليه استجمعت كل حواسها لمعرفته، ثم بعد أن تدري به يتعمق في النفس ويستقر في الوجدان[٢].

ومما ورد فيه التشويق بغرض تحريك مشاعر المخاطب واستمالته نحو ما سيُلقى إليه بعد الاستفهام، الحديث المروي عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الخُزَاعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ. أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ "[٣]

المفهوم من الحديث أن من صفات أهل الجنة أن يكون الإنسان ضعيفاً متضاعفاً لا يهتم بمنصب أو جاه، ولا يسعى إلى علو المنازل في الدنيا، وإنما

١ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ١١٥/٢
٢ – ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ج٨٢/٢
٣ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر ج٢٠/٨، رقم الحديث ٦٠٧١

يميل إلى عدم الظهور، لأنه يرى أن المهم أن يكون له جاه عند الله عز وجل لا أن يكون شريفا في قومه، أو ذا عظمة فيهم، فهمه كله أن يكون عند الله سبحانه وتعالى ذا منزلة كبيرة عالية.

وقوله لو أقسم على الله لأبره يعني لو حلف على شيء ليسر الله له أمره حتى يحقق له ما حلف عليه، وهذا يقع عندما يحلف الإنسان على شيء ثقة بالله عز وجل ورجاء ثوابه، فيبر الله قسمه، وفي المقابل فصفات أهل النار جفاء القلب والغلظة، وجمع المال، ومنع ما يجب منحه، والجزع وعدم الصبر على أي شيء ، لأنهم يرون أنفسهم في أعلى قمة من أن يمسهم شيء.[1]

إنها كلمات قليلة موجزة تملكت القلوب، وأخذت بتلابيب العقول، فقد استثار الاستفهام في مفتتح الحديث شوق الصحابة إلى ما هم شديدي الحرص على معرفته للقيام به حيناً، ولتجنبه حيناً آخر، وقد تخير النبي صلى الله عليه وسلم اقتران التشويق بالمقابلة بين حالتي أهل الجنة وأهل النار على سبيل المقارنة ؛ ليتضح حسن الحَسن وقبح القبيح بصورة آكد وأوضح، وعلى هذا النحو أيضاً أفاد التوكيد اللفظي (كل) تعميق المعنى وترسيخه في النفس بحيث يستغرق كل من اتصف بالعبودية لله عز وجل وتواضع له وتذلل فأعزه الله، وتؤدي الجملة الاسمية كذلك ثباتاً وديمومة لمقام من اتصف بتلك الصفات عند الله ومنزلتهم في الجنة أو في النار، وقد تم الإخبار عن أهل الجنة بجملة حالية مقيدة بالشرط المعبر عنه بدلالة الماضي فعلاً وجواباً (لو أقسم–لأبره) ؛ لإفادة

١ – ينظر: إرشاد الساري للقسطلاني، ج٩/٥١

تحققه في المستقبل والتأكيد على ذلك التحقيق، كما يشفّ التركيب الشرطي عن كل معاني القبول والرضا والاستجابة ؛ مما يحفز النفس إلى الوصول إلى هذه المنزلة، وورد الإيجاز بالحذف وفقاً لمقتضى الحال، فالمقام يقتضى السرعة والإيجاز لشدة تلهف الصحابة على العلم، ولشدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الإعلام، وأما التنكير في لفظتي (جواظ مستكبر) فقد ورد بغرض التقليل من شأنهم وتحقيرهم للتقليل من شأنهم وتحقيرهم، وقد أفاد التضعيف في اللفظتين مبالغة في التنفير من كلا الصفتين.

٣- الحث:

الحث هو الحض على فعل شيء على وجه السرعة هذا ما يستفاد من معنى (حثّ) في معجم اللسان، والحث في الاستفهام يراد به دعوة المستفهم للمخاطب إلى فعل شيء حسن على وجه الاستعجال[١]، وقد ورد هذا النوع من الأسلوب الاستفهامي في الحديث المروي عن أنس رضي الله عنه أن رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قَالَ: «وَيْلَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: «إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا، فَمَرَّ غُلاَمٌ لِلْمُغِيرَةِ وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِي، فَقَالَ: «إِنْ أُخِّرَ هَذَا، فَلَنْ يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[٢]

١ - ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (حث)

٢ - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب في قول الرجل ويلك، ج١٥/٨، رقم ٦٠٤٣

أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على الأعرابي سؤاله ؛ لأنه سأل عن الغيبيات التي علمها عند الله وحده، والاستنكار مستفاد من كلمة (ويلك) التي تصدرت جواب النبي صلى الله عليه وسلم بما تضمنته اللفظة من زجر وتقريع وتبكيت، وبعد ذلك سلك النبي صلى الله عليه وسلم مع السائل أسلوب الحكيم، وتلقاه بغير ما يطلب مما يهمه[1]، وبادر الأعرابي بالسؤال عما أعد للقيامة، وفي هذا الالتفات عن الجواب إلى السؤال تنبيه قوي له ولفت نظر إلى ضرورة التزود بما ينجي من أهوال القيامة، لأن لا فائدة ترتجى من الاستفهام عن أمر منكر السؤال عنه عرفاً وشرعاً، وإنما الفائدة فيما تم توجيه الإعرابي إليه عن طريق الاستفهام.

وقد شكّل استفهام النبي صلى الله عليه وسلم حضاً على العمل الصالح وحثاً عليه، وقد انطوت دلالة الحض والحث على جانب تحذيري يمكن استنباطه من خلال لفظة "ويلك" وقد تلقى الأعرابي هذا البلاغ والتحذير بفهم ثاقب، وسارع بالجواب مستخدماً أسلوب القصر "ما أعددت لها إلا " الذي أتى لتأكيد المحبة الإيمانية الشرعية التي يحملها لله ورسوله، والتي تقتضي الامتثال لما في الكتاب والسنة، و بهذه المحبة ينتظر المثوبة وعظم الأجر، وسياق الحديث يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى جواب الأعرابي بظاهره بلا تكلف بالبحث عن النوايا والمقاصد ؛ لأن لا سبيل إلى معرفة ما في القلوب، وعلّق على جواب الأعرابي بإجابة عامة "أنت مع من أحببت"، و استتبع جوابه صلى الله عليه وسلم سؤالاً آخر من الصحابة " ونحن كذلك " وكأنهم فهموا

١ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ١٩٦/٢٢

إعلام النبي للأعرابي بأنه خاص به، مما استدعى التكرار من النبي صلى الله عليه وسلم للمعنى نفسه، وهكذا نجد أن الاستفهام حقق غرضه في استثارة الصحابة على التفكر فيما بعد الموت والحض على إرضاء الله تعالى، والامتثال لأوامره والتمسك بما فيه النجاة من كتاب الله وسنة نبيه، ولو قصرنا الاستفهام على معنى الاستنكار المستفاد من لفظة "ويلك" فقط دون غيره من مقاصد لفقدنا كثيراً من الدلالات الثانوية، والتي شفّ عنها سياق التهويل والترغيب والزجر والتنبه ولفت النظر مما عمق من أثر الوظيفة التربوية والتوجيهية التي انطوى عليها الحديث النبوي الشريف.

٤ – الإنكار:

جعل عبد القاهر الجرجاني الإنكار أحد مقاصد الاستفهام الأربعة، وبيّن أنه يأتي لحث السامع على التنبه حتى يرجع إلى نفسه، ويرتدع، ويعي بالجواب... فإذا روجع تنبه وعرف الخطأ [١]، وجاء في اللسان: الاستنكار: استفهامك أمراً تنكره[٢] ، ومن مواطن الإنكار في الحديث النبوي الشريف ما روي عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اللُّقَطَةِ، فَقَالَ: «عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ اعْرِفْ وِكَاءَهَا وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ اسْتَنْفِقْ بِهَا، فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَضَالَّةُ الغَنَمِ؟ قَالَ: «خُذْهَا، فَإِنَّمَا هِيَ لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَضَالَّةُ الإِبِلِ؟ قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ

١ – ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص٨٥

٢ – ينظر: لسان العرب –ابن نظور، مادة (فهم)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ – أَوِ احْمَرَّ وَجْهُهُ – ثُمَّ قَالَ: «مَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا»[1]

يكشف سياق الحديث كيفية التعامل مع ممتلكات الآخرين الضائعة من مال أو متاع أو حيوان، إذ يبين النبي صلى الله عليه وسلم للسائل حكم اللقيطة فإن كانت متاعاً، فعلى واجدها أن يعلن عنها سنة ويحتفظ بهيئتها ليستطيع صاحبها التعرف عليها، وإن لم يظهر لها صاحب فهي لمن وجدها، وأما ضالة الحيوان من الغنم فهي لمن يلتقطها ؛ لأنها ضعيفة معرضة للهلاك، وأما ضالة الإبل فهي مستغنية عن الحفظ بما ركب من طباعها من الجلادة على السير الطويل وتحمل العطش[2].

والواضح أنه استشكل أمر اللقيطة على الرجل السائل فلجأ إلى الاستفهام منفذاً للتعلم والتحري، ولم تخرج استفهاماته عن دائرة الحقيقة ؛ لأنه أراد أن يحصّل جواباً عما استبهم عليه حكمه، وأهمه أمره، أما الاستفهام الصادر عن النبي صلى الله عليه وسلم فكان عدولاً عن جواب السائل، إلى سؤال آخر_ لا ينتظر جواباً لأنه سؤال مجازي_ هدفه التأثير النفسي المقترن بالإنكار التوبيخي للسائل ؛ وذلك استقصاراً لعلم السائل وسوء فهمه ؛ لأنه لم يراع المعنى المذكور، ولم يتفطن له فقاس الشيء على غير نظيره [3]، بالإضافة إلى ما

١ – صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم، ج١/٣٠، رقم الحديث ٩١

٢ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ج٢/١٠٩–١١٠

٣– ينظر: عمدة القاري للعيني،ج٢/١١٠

تضمنه الاستفهام من دلالات الزجر و التحذير خشية تعد حدود الله في ممتلكات الناس، و قد أفصحت ملامح وجه النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد دلالة الإنكار، وما اقترنت بها من دلالات أخرى استحضرها مقام الحال المرتبط بالسائل والسؤال معاً، فعلامات الغضب لا تظهر على وجه النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا خشي من انتهاك ما حرم الله ، وهنا اختصت المحارم بحقوق الناس، وعليه فقد حمل احمرار الوجه رسالة قوية للسائل بوجوب الانتهاء عن أخذ ضالة الإبل، وعلى هذا النحو أفادت المواءمة القوية بين العلامات الانفعالية المعبرة عما في النفس وبين المنطوق الذي تلاها في تصعيد المعنى وتكثيفه، إذ آثر النبي صلى الله عليه وسلم الرد على سؤال الرجل بسؤال آخر مضمناً إياه دلالتين متراتبتين في التوجيه أولهما: الإنكار التوبيخي على أمر خيف من وقوعه في المستقبل" مالك ومالها"، وثانيهما: الحض والحث على أداء عمل معين وهو ترك ضالة الإبل تجنباً لوقوعه في ذنب التعدي على ممتلكات الآخرين ؛ ولأن قلب السائل قد لا يميل إلى هذه الفتوى أطنب النبي في كلامه وفصّل مبيناً مسوغات الحكم الشرعي، وذلك بهدف حمل السائل على الالتزام بأحكام الله، وردعاً عن الوقوع في المحارم من جهة، وتمكين المعنى في النفس من جهة أخرى، وقد اختار النبي من عناصر الحبك الدلالي علاقة السببية المتمثلة بالتركيب الاسمي ذي الدلالة الثابتة لتوضيح الطبيعة الخلقية التي تجعل الإبل تستغني عن الحفظ والحاجة للحماية، وبالمقابل أفاد التركيب الفعلي ذي الدلالة المتجددة في قوله " تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ " تأكيد قدرة الإبل على

الاستمرار والبقاء، وبالتالي وجوب تركها ، والذي تأكد تأكيداً لا يعذر من يتجاهله لورده بصيغة الأمر الحقيقي الذي يفيد الاستعلاء.

كما نجد أيضاً خروج الاستفهام عن دلالته الحقيقية إلى غرض الإنكار في استفهام النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو سروعة عقبة بن الحارث والذي تزوج " ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عُزَيْزٍ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ، فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي، وَلاَ أَخْبَرْتِنِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ» فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ، وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ "[1]

معنى الحديث كما ورد في شرح صحيح البخاري أن عقبة بن الحارث – رضي الله تعالى عنه– تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز، هذه المرأة جاءت تسميتها في بعض الروايات بأنها غَنيّة، وأن كنيتها أم يحيى، فأتته امرأة، سائلة، يعني: تطلب العون والمساعدة، فأبطئوا عليها فقالت: تصدقوا عليّ فإني قد أرضعتكما، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ليسأل عن هذه المسألة، فسأل النبيَّ –صلى الله عليه وسلم–، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: " كيف وقد قيل؟ " يعني: كيف تعاشرها وقد قالت المرأة إنها أرضعتكما، ففارقها عقبة ونكحت زوجاً غيره ؛ أي أن ما أفتى به النبي صلى الله عليه وسلم جاء

١ – صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله، ج٢٩/١، رقم الحديث ٨٨

متضمناً في الاستفهام الإنكاري " كيف وقد قيل؟ " ، و يؤخذ منه أنه يجب عليه أن يفارقها على سبيل التورع والاحتياط.[1]

وجاء البيان النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة من جوامع الكلم، فالحكمة النبوية تقتضي تهوين الأمر على عقبة ؛ لأن مفارقة الزوجة ليست بالأمر الهين، وكذلك البقاء معها قد يصيبه بالإثم ؛ لأن في الأمر شبهة حرام، ولذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عدل عن الأمر المباشر إلى الاستفهام الذي جمع بين الإيجاز والإبلاغ، فقد استعمل أداة الاستفهام (كيف) ويُسأل بها عن الحال ؛ بغية توجيه نظر عقبة إلى أن الحال قد تقرر عند النبي صلى الله عليه وسلم، ويجب ان يستقر عند عقبة أيضاً، فالنبي صلى الله عليه وسلم أنكر بتلطف على عقبة عدم مفارقة زوجته بأسلوب الاستفهام للتخفيف من حدة الإنكار، والإنكار توجه على فعل قد وقع في الماضي ومازال مستمراً ، وتم حذف الفعل (تعاشرها) وهي الجملة المستفهم عنها، وكأنه أسقط الفعل في الجواب توجيهاً إلى ضرورة إسقاطه في الواقع ، وفي هذا توصيل للإجابة عن المسألة بأصرح تلميح وأوجز عبارة، وسبق هذا الحذف التأكيد بـ (قد) التي وردت مع الفعل الماضي لتفيد تحقق الرضاعة، وكأنه استشعر تردداً قلبياً من عقبة فأنزله منزلة المتردد ليعمق المعنى في نفسه، ويؤكده بما يدفع سبل العذر الذي لم يعد مسوغاً بعد أن وقع القول ، وفيه إعلام بالأمر عن طريق المرأة، وبني الفعل للمجهول لأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد لفت نظر عقبة إلى فعل القول نفسه، فهو بؤرة الحدث المستفهمْ عنه.

---

١ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ج١٠٢/٢

٥ – العتاب:

وهو أدنى درجات اللوم والمَوْجِدَة، ولا يكون إلاَّ بين الأصْفياء والمتوادين، ومقام العتاب يكون إذا فرط من المعتوب عليه شيءٌ يكرهه العاتب، فيُعاتبه ؛ رغبةً في "رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب"[١]

ومن الاستفهامات التي خرجت للعتاب في الحديث النبوي الشريف ما جاء موجهاً إلى السيدة عائشة – رضي الله عنها– حيث روي عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ اليَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» [٢]

يتبن من الحديث أن اليهود جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو في بيت عائشة فسلّموا سلاماً لوّوا به ألسنتهم، وأوهموا الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عنده بأنهم يسلّمون عليه السلام الشرعي، لكنهم في الحقيقة قلبوا السلام إلى الدعاء على الرسول صلى الله عليه وسلم بلغتهم حيث قالوا: السام، ومعنى السام هو الموت ، فغضبت عائشة وردت بالدعاء عليهم بغضب من الله ولعنة، وهنا توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة طالباً منها الرفق وعدم الفحش في القول، وحينما بررت عائشة رضي الله عنها ما قالته متعجبة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم كأنه لم يسمع ما قالوا، رد عليها الرسول الكريم بسؤال

١ – لسان العرب، ابن منظور، مادة (عتب)

٢ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، ج١٢/٨، رقم الحديث ٦٠٢٠

متفرع عن سؤالها، عاتبها لأنها لم تتبع سنته " أولم تسمعي ما قلت" إذ عدل عليه الصلاة والسلام عن العتاب باللفظ الصريح، والأمر المباشر بعدم الفحش في الكلام إلى الاستفهام المجازي ؛ لأن فيه تلطفاً بالمعتوب، وكذلك هو أبلغ تأثير في القلب لأن التلميح بين من تجمعهم علاقات خاصة قوامها الطاعة والحب يكون أشد تأثيراً وتمكيناً، وفي هذا المقام عمد النبي الكريم إلى إشعار عائشة – رضي الله عنها– بأنَّ ما صدَر عنها غير مقبول لأمرين أولهما: يتعلق بضرورة التحلي بالمبادئ الإسلامية التي حثنا الله تبارك وتعالى إذ يقول: ((فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)) فإذا كانت اليهود قالوا السام عليكم فنحن نقول: وعليكم ولا نزيد بالرد عليهم شدة ، فنقول كما قالت السيدة عائشة ولعنكم الله وغضب عليكم، هذا هو الأمر الأول وهذا المبدأ معروف في الإسلام، فقال صلى الله عليه وسلم لها ناصحاً " تأني وارفقي (يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله)... أن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه " [1]، وثاني الأمرين: يتعلق بشخصها رضي الله عنها ومكانتها يعني كأن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد منها أن تكون أحلم مما هي عليه، وتتوخى الرفق في أمرها لئلا يجري على لسانها ما جرى، وبلاغة عتابه صلى الله عليه وسلم عائشةَ هنا، أنه نبهها إلى خطأ ما بدر منها متفهماً أسباب تصرفها، وهي الخشية على النبي صلى الله عليه وسلم، لا بطريق التقريع و الإنكار، بل بطريق الاستفهام، كأنه يستدرك عليها قولها، ولذلك عاتبها – صلى الله عليه وسلم – بطريق المفهوم لا المنطوق، توخياً للحفاظ على مشاعرها، وإمعاناً في التلطف في عتابه صلى الله عليه وسلم أردف استفهامه بما يحمل دلالتي الإعلام والتبشير بأنه لا يستجاب لليهود في قولهم ويستجاب للنبي فيهم.

١ – إرشاد الساري للقسطلاني،ج٢٨/٩

٦-التهويل:

يعني في اللغة: التخويف الشديد والتفزيع مع تعظيم شأن المُهَوَّلِ منه[١]؛ وهو نمط بلاغي للاستفهام المجازي يوضح فيه المتكلم أن ما حدث هو أمر خطير يبعث على الأذى والضرر، مما يستوجب الرجوع عنه لأنه ليس بالأمر الهيّن.

وقد ورد الاستفهام لهذا الغرض في الحديث الذي رواه " جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلاَةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ البَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلاَةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا البَارِحَةَ، فَقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ – ثَلاَثًا – اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى وَنَحْوَهَا " [٢]

كان معاذ من أفقه الصحابة وأعلمهم بالحلال والحرام، ومحبوب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كان يصلّي مع النبي –صلى الله عليه وسلم– صلاة الفريضة، ثم ينطلق مسرعاً إلى مسجدٍ في نواحي المدينة ليصلّي بهم تلك الصلاة إماماً، غير مبالٍ بمشقّة الذهاب والإياب كلّ يوم، وفي إحدى الليالي

١ – ينظر: جمالية الخبر والإنشاء، حسين جمعة، ص ١٥١

٢ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلا، ج٨/٢٦، رقم الحديث ٦١٠٦

وبعد أن فرغ رضي الله عنه من صلاته مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، انطلق إلى المسجد الآخر كعادته ليؤم المسلمين، وشرع في قراءة سورة البقرة، واستطرد في قراءتها، وفي القوم رجلٌ من عوام المسلمين الذين يكدّون طوال اليوم بالأعمال الحِرَفيّة الشاقة، والتي تتطلّب منهم جهداً ووقتاً؛ ولذلك استثقل الرجل طول الصلاة، ورأى أنها ستؤخّره عن أعماله وستُربِك جدول مهامّه، فانفرد الرجل فأتمّ الصلاة لوحده ثم انصرف ؛ ولأن مثل هذه التصرّفات مشهورةٌ عن جماعة المنافقين لم يتردّد معاذ – رضي الله عنه – في الحكم على الرجل بأنه من المنافقين، فصُدم الرجل بمقولة معاذ رضي الله عنه، وحاول أن يدفع التهمة عن نفسه، لكن دفاعه لم ينفع، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخبره بما دار بينهما، ويعتذر مما صنع، مبرراً فعلته بما يتطلّبه العمل في الزراعة من أوقات كثيرة لا يمكن معها الاسترسال في الصلاة ، والتطويل فيها، فلماذا إذن يصدر عليه معاذ ذلك الحكم الجائر بالنفاق[1]

فبادر النبي الكريم حديثه لمعاذ مستفهماً: "أفتان أنت يا معاذ" والنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب جواباً عن سؤاله ؛ لأنه يعلم الجواب، ولكن أراد تنبيه معاذ إلى الخطأ الذي وقع منه، وكأنه يقول لمعاذ لا ينبغي أن يصدر عنك مثل الذي صدر، وآثر لفظة (فتان) في التعبير لأنه أكثر تهويلاً لما حصل حتى لا يتكرر، ومن هنا فقد شكّل الاستفهام استراتيجية توجيهية عمد من خلالها النبي صلى الله عليه وسلم إلى تنبيه الصحابي الجليل إلى أن ما صدر عنه أمر خطير، قد يفتن الناس عن دينهم، و قد كرر هذا الاستفهام بهدف إحداث التأثير

١ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ج١٥٨/٢٢

الوجداني في نفس السامع، و تأكيد الفكرة الرئيسة في الحديث وإبرازها على نحو واضح ، وهي تهويل أمر الفتنة التي قد تنشأ بسبب عدم مراعاة ظروف المصلين والتعجل في الحكم عليهم مما يستتبع فتنتهم عن دينهم، وأفاد تضمين كلامه صلى الله عليه وسلم النداء بحرف نداء للبعيد (يا) مع أن المنادى شديد القرب منه ؛ ليشد اهتمام المنادى بما سيلقى إليه مما من شأنه تلافي حدوث هذا الأمر المفزع، وهو توجيه معاذ رضي الله عنه إلى قراءة السور القصار. فيقع المعنى في نفسه ويقر بداخله ويكتمل نفعه.

٧- النفي:

قد يخرج الاستفهام عن دلالته الحقيقة إلى غرض بلاغي هو النفي، وشرط دلالة الاستفهام على النفي أن يصحَّ "حلول أداة النفي محل أداة الاستفهام" [١]، وفي العدول عن دلالة النفي المباشرة إلى الاستفهام تنبيه للمخاطب، وحث له على إعمال عقله ليصل بنفسه إلى معنى النفي المستفاد من السياق، فالمستفهِم الذي يقصد النفي من سؤاله يطلب من المستفهم منه أن يستبعد نقيض النفي وهو الإثبات، ويخرجه من دائرة الثبوت إلى السلب، ومن الاستفهام الذي قُصد منه النفي كذلك ما روي عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى

١ – من بلاغة النظم العربي: دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م، ص ١٢٤

النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»[1]

يتبين من الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم عدّ الرحمة من الخُلق الرفيع، والخصال النبيلة، وقد وصف الله بها نفسه في أكثر من موضع من كتابه الكريم ، وهي نعمة من الله لا يملك منحها أو نزعها غيره عز وجل.

وآثر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام الكلامي الذي ينطوي على أمر يتعلق بالجانب الوجداني استخدام أسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى النفي " الهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري ومعناه النفي، لأنه أشد تقريعاً للمخاطب وتيئيساً، إذ أنكر على المخاطب فعلته مقراً بأنه صلى الله عليه وسلم لا يقدر أن يجعل الرحمة في قلبه بعد أن نزعها الله منه " [2] ومن بلاغة العدول عن النفي الصريح إلى الاستفهام أنه أوقع في النفس وأشد تمكيناً للمعنى الذي يلي بنية الاستفهام ؛ لأن جوابه يجب أن يكون بالنفي فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه وهذا أبلغ لأن المسؤول يقرُّ على نفسه بأن الرحمة كانت في قلبه ثم نزعت عنها ؛ لأنه لم يرويها بما ينميها من العطف على الأولاد، ومعانقتهم وتقبيلهم، وفي هذا حث على التنبه إلى حالة القصور العاطفي التي آل إليها الرجل ، وغدت تسيطر على تفكيره، وهو ما استنكره النبي عليه الصلاة والسلام، وعرّض به إذ أتبع الجملة الاستفهامية بأن المصدرية الداخلة على فعل ماض للدلالة

١ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ج٧/٨، رقم الحديث ٥٩٩٨

٢ – فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ج٤٣٠/١٠

على أن الفعل تم وانتهى، والمصدر المؤول يفيد معنى الثبات والديمومة لحالة نزع الرحمة والتعبير بلفظة (نزع) يوحي بالألم المترتب على الفعل، والذي يجب أن يستشعره من نزعت منه هذه النعمة.

كما ونجد أن الأغراض البلاغية للاستفهام من تعجب و إنكار وإقرار قد تضافرت لتضفي قوة مضافة إلى قوة النفي لتبين حرص النبي صلى الله عليه وسلم على التراحم والتعاطف بوصفه قوة بناءة بها تتآلف القلوب وتعمر بالمحبة،فالرحمة مدعاة لرضى الله ؛ لأنه من عمر قلبه بالرحمة رق له القلب، ورضي عنه الرب وأصابه بالإنعام.

٨-التبكيت:

هو أحد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، وفيه يُستقبل الإنسان بما يكره من ذم لقبح فعله، وعده المرزوقي أعلى درجة من التوبيخ إذ إنه توبيخ واستنكار وتعنيف[١]، ووضح ابن منظور أنه يزيد على التقريع بالحجة إذ يقول: " وبكته بالحجة أي غلبه "[٢] وورد الاستفهام بغرض البكيت فيما روي ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ صَائِدٍ: «قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا، فَمَا هُوَ؟» قَالَ: الدُّخُّ، قَالَ: «اخْسَأْ»[٣]

١ - ينظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ، أحمد بن محمد، نشرها أحمد أمين، ط١، لجنة التأليف، د.ت، ص ١٨٢٦.
٢ - لسان العرب، ابن منظور، مادة بكت.
٣ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرجل للرجل اخسأ، ج٨/٤٠،رقم ٦١٧٢

مضمون الحديث يدور حول رجل يهودي من مكة يدعى ابن صياد، وكان دجّالاً، يتكهن فيصدق أحياناً ويكذب أحياناً أخرى، فانتشر خبره بين الناس، وشاع أنه الدجال. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يطّلع على أمره ، ويتبين حاله، فكان يذهب إليه و يوجه إليه بعض الأسئلة التي تكشف عن حقيقته. وكما يفهم من سياق الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد امتحانه بما خبأه له من آية الدخان " يوم تأتي السماء بدخان مبين" وقال: " خبأت لك خبيئا " فقال: هو الدخ، أي الدخان، وهي لغة فيه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (اخسأ فلن تعدو قدرك) أي لا تجاوز قدرك وقدر أمثالك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء الشيطان كلمة واحدة من جملة كثيرة [١]، والاستفهام في هذا المقام يتضمن فعلاً حجاجياً بالقصد المضمر لإفحام المدعي بكذبه وبفداحة فعله، وأما المستفهمْ منه المغتر بقدرته، ففهم أن الاستفهام ورد بقصد التثبت والتحقق من قدرته، ولذلك رد على وجه السرعة واثقاً بما ألقي إليه من الشياطين بأن الخبيئة هي" الدخ"، واتساقاً مع هذا المقام حذف المسند إليه ليسارع في إقامة الحجة على الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كان من النبي الكريم إلا أن رد عليه بصيغة الآمر المستعلي استعلاءً حقيقياً "اخسأ" وورد عن ابن بطال أن أصل كلمة: اخسأ، زجر للكلب وإبعاد، ومن ثم استعملتها العرب في كل من قال أو فعل ما لا ينبغي له مما يسخط الله تعالى. قوله: (اخسأ) أي: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أسكت صاغرا مطرودا.[٢]

١ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ج١٨٩/٢٢-١٩٩

٢ – ينظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد: السعودية: الرياض، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، ج٣٣٣/٩

٩-التعجب:

ويرد هذا النمط البلاغي استفهام في اللفظ، وتعجب في المعنى ؛ لأن المستفهم يتعجب من كيفية وقوع الحدث أو آلية وقوعه. ويعرفه الغلاييني قائلا: "التعجب هو استعظام فعل فاعل ظاهر المزية". [١] فهو استعظام أمر ما قد يكون إيجابياً فيكون تعظيماً وتفخيماً، وقد يكون سلبياً فيكون تهويلاً، والتعجُّب من مادة "العُجْب"، و" العَجَب" بمعنى: "إنكار ما يَرِدُ عليك؛ لقلَّة اعتياده "[٢]

ومما خرج فيه الاستفهام لهذا المعنى البلاغي من الحديث النبوي الشريف ما روي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هِجَاءِ المُشْرِكِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « فَكَيْفَ بِنَسَبِي » فَقَالَ حَسَّانُ: لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ العَجِين "[٣]

حوار قصير بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين حسان رضي الله عنه استثار في نفس النبي صلى الله عليه وسلم تناقضاً عبر عنه بالاستفهام الذي حمل في طياته دلالات التعجب والاستغراب والدهشة من طلب حسان الإذن لهجاء المشركين، إذ من المعروف والشائع في هذا الفن الشعري أنه يقوم على الغض من شأن الآباء، و النبي عليه السلام يعلم يقيناً أن حسان لم يفته هذا الأمر، وأنه شديد الحرص على ألا يمس نسب النبي بأدنى هجاء، وهذا ما دعا

١ – جامع الدروس العربية،، مصطفى الغلاييني، دار الحديث: القاهرة، ٢٠٠٥م، ج ١، ص. ٥٢

٢ – لسان العرب، ابن منظور، مادة (عجب)

٣ – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب هجاء المشركين، ج٣٦/٨، رقم ٦١٥٠

النبي صلى الله عليه وسلم للاستفهام متعجباً (فكيف بنسبي؟) ، أي كيف تهجوهم ونسبى المهذب الشريف فيهم فربما مسنى من الهجو نصيب [١]، والاستفهام هنا ورد عن الحال والهيئة لاعن الماهية التي تستدعي السؤال المباشر فهو لم يقل" ماذا ستفعل بنسبي" وإنما آثر القول "فكيف بنسبي" ؛ إذ عد هيئة حدوث الفعل لا ماهيته مثار حرصه وعنايته وسبب تعجبه، وقد تضافر في الحديث الشريف عناصر الترابط التركيبي، فمن ذلك مناسبة الحذف فيما يلي (كيف) لمقام التعجب والاستغراب، وكذلك تصدير اسم الاستفهام بالواو العاطفة التي أدت دور الترتيب والتعقيب، فالسؤال أعقب طلب الإذن وسياق الكلام المبني على ترتب المعاني في النفس يوحي بأن النبي وكأنه أضمر الإذن لحسان، وترتب على هذا الإذن توضيحاً للحال التي سيكون عليها الأمر، ومما يرجح هذه الدلالة جواب حسان الذي قدم توضيحاً لما تم التعجب منه إذ قال " لأسلنك " أي لأخلص نسبك من هجومهم بحيث لا يبقى شيء من نسبك فيناله الهجو، كالشعرة إذا انسلت لا يبقى عليها شيء من العجين[٢]، أي أهجوهم بما لا يقدح في نسبهم الماس له عليه السلام، ولكن أهجوهم بسيء أفعالهم وبما يخصهم عارة في أنفسهم، وتبقى فيهم وصمة من الأخلاق والأفعال المذمومة التي طهر الله نبيه منها ونزهه من عيبها.[٣]

١ – شرح صحيح البخاري لابن بطال، ج٩/٣٢٧
٢– ينظر: عمدة القاري للعيني، ج٢٢/١٨٦
٣ – ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، ج٩/٣٢٧

وكذلك من الأساليب الاستفهامية التي تفيد التعجب ما نجده في الحديث النبوي الشريف المروي عن أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجَرِ – يُرِيدُ بِهِ أَزْوَاجَهُ حَتَّى يُصَلِّينَ – رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الآخِرَةِ» [1]ومعنى الحديث كما ورد عند أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة من الليالي التي كان فيها مع زوجته أم سلمة رضي الله عنها وهي التي روت الحديث فقال متعجباً: مما رأى –أو مما أوحى الله تعالى به إليه (سبحان الله) ، ما أكثر ما نزل في هذه الليلة من الفتن.... وما أكثر ما فتح فيها من خزائن رحمة الله تعالى على عباده، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة رضي الله عنها بإيقاظ صواحب الحجر (زوجاته الأخريات) لقربهن منه صلى الله عليه وسلم حسا ومعنى، وحتى لا يتغافلن عن العبادة ويعتمدن على كونهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال صلى الله عليه وسلم كم من امرأة كانت كاسية منعمة في الدنيا وهي في الآخرة عارية من ذلك كله، حين يكسى غيرها من أهل الصلاح.

الجملتان الاستفهاميتان " ماذا أنزل من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن " متعلقان بمصادر الإدراك فالرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ما لا ندرك ؛ لاختلاف آلية ادراكه عن آلية إدراكنا، ولم يختر النبي صلى الله عليه وسلم التعبير عما أدركه بالأسلوب الخبري ؛ لأن هذا يقتضي الإعلام المباشر الذي قد لا يحرك انفعالات المخاطب ومشاعره، كما في الأسلوب الإنشائي الذي ينشط ذهن

١ – صحيح البخاري،كتاب العلم، باب العلم والعظة بالليل، ج١/٣٤، رقم الحديث ١١٥

المخاطبين ويجعلهم أكمل استعداداً واشتياقاً لبيان المستفهم عنه والذي خرج هنا إلى غرض التعجب والاستعظام بغرض التكثير والتهويل، وقد بني على الاستفهام الأول استفهاماً آخر "من يوقظ صواحب الحجر" لم يرد على حقيقته ، وإنما خرج إلى غرض الأمر الذي عدل عنه النبي صلى الله عليه وسلم تلطفاً وتوددا واتساقاً مع سياق التوجيه، الذي تضمن الحث والتحضيض على فعل شيء على وجه السرعة وهو التوجه إلى الدعاء والتضرع رهبة ورغبة ولاسيما في الليل لرجاء وقت الإجابة.

١٠-الإخبار والإفهام:

يُستعمل الاستفهام أسلوبا من أساليب الإخبار، وبذلك يدخل في طريقة الإعلام غير المباشر فالإخبار هو الإعلام بالشيء، ويستعمل لإثبات أمر ما، لذا ارتبط بالتحقيق في أسلوب الاستفهام لأنه يتجه إلى إطلاع السامع أو تثبيت خبر لديه، أو أنه يرمي إلى كليهما معاً [١]، ونجد هذا الغرض متضمناً في الحديث الذي رواه عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، وَسَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ، " فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتَسْتَحِقُّونَ قَتِيلَكُمْ – أَوْ قَالَ: صَاحِبَكُمْ – بِأَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْرٌ لَمْ نَرَهُ. قَالَ: «فَتُبْرِئُكُمْ يَهُودُ فِي أَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ

١ – ينظر: جمالية الخبر والإنشاء، حسين جمعة، ص ١٤٤

اللَّهِ، قَوْمٌ كُفَّارٌ. فَوَدَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قِبَلِهِ، قَالَ سَهْلٌ: فَأَدْرَكْتُ نَاقَةً مِنْ تِلْكَ الإِبِلِ، فَدَخَلَتْ مِرْبَدًا لَهُمْ فَرَكَضَتْنِي بِرِجْلِهَا"[1].

الاستفهام ورد في سياق حد القسامة وهي اسم للأيمان التي تقسم على أولياء الدم، مأخوذة من القسم وهو اليمين، وحدّها هنا خمسون يميناً يقسمها ولي المقتول عندما يتهم شخصاً بقتله، مع وجود قرينة ما تقرب احتمال صدقه، أو يقسمها المدعي عليه عندما لا يكون ثمة قرينة لاتهامه. والمفهوم من لفظ الحديث أنه قُتل عبدالله بن سهل، وقد كان متوجهاً إلى خيبر ليبتاع تمراً هو ورفيقه وقد تفرقا ثم وجداه ملطخاً بدمه، فقدم أخو القتيل– عبد الرحمن بن سهل – ورفيقيه في السفر– حويصة ومحيصة– إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبروه الحادثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن " أتستحقون قتيلكم" بهمزة الاستفهام أي بدل دم صاحبكم، ففيه حذف مضاف أو معنى صاحبكم غريمكم فلا حاجة إلى تقدير، والجملة فيها معنى التعليل لأن المعنى أتحلفون لتستحقوا وقد جاءت الواو بمعنى التعليل[2]، والسؤال بقرينة الحال خرج عن دلالته الحقيقية، وهي طلب الفهم إلى دلالته المجازية، وهي الإخبار والتحقيق ؛ وذلك تطييباً لخاطرهم وحقناً للدماء، إذ قام بإعلامهم أن حقهم في القسامة ثابت إن أدوا موجباته وهي الحلف، وآثر النبي صلى الله عليه وسلم توجيه الكلام بأسلوب الاستفهام في مقام الإخبار ؛ لأنه أثبت في الذهن

١ – صحيح البخاري، كتاب الدب، باب إكرام الكبير، ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال، ج٣٤/٨، رقم الحديث ٦١٤٢

٢ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ج١٧٩/٢٢

وأرسخ في العقل وفيه إثارة لانتباه المخاطبين بأن للقسامة حداً يجب أن يتحقق، وبتتمة الحديث نجد أنهم لم يحلفوا لعدم حضورهم القتل ولم يقبلوا حلف اليهود لتبرئتهم، ومع ذلك ارتأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يوادهم من مال الصدقة ؛ وذلك لما فيه من مصلحة قطع النزاع وإصلاح ذات البين وجبرًا لخاطرهم وإلا فاستحقاقهم لم يثبت.

١١- التلطف والإيناس:

يريد المتكلم أن يؤانس من يخاطبه ويواسيه لأمر ألم به، فيبادره مستفهماً عن أمر هو عالم به تمام العلم، ولكن يهدف من استفهامه مواساته واستدراجه إلى الحديث إيناساً له وتلطفا معه، ومثال ذلك ماروي عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ – قَالَ: أَحْسِبُهُ – فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ»[1]

ذكر أنس أن له أخاً صغيراً يُكنى أبا عُمير، وكان له طائر صغير يلعب به، فمات، فدخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرآه حزينًا، فسأل أم حسان: ما شأنه؟ قالت: مات نغره[2]، فشعر النبي الكريم بعظم حزنه الصادق والبريء، فأنزل نفسه منزلة الجاهل بالأمر، وسأله عن شأن عصفوره، ليشعره بالاهتمام بأمره، ومن ثم يعلمه بتضامنه معه فيما ألمّ به، فناداه بكنيته تكبيراً له ؛ لما يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن الأولاد يحبون هذا الأمر، وبني الحديث

١ – صحيح البخاري، كتاب الأدي، باب الانبساط إلى الناس، ج٣١/٨، رقم الحديث ٦١٣٠
٢ – ينظر: عمدة القاري للعيني، ج١٠٧/٢٢

على أسلوبين انشائيين النداء والاستفهام توخياً لاستثارة نفس الطفل، في الإقبال على الحديث مع النبي صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه ومواساته.

١٢- تنشيط الذهن:

هو من المعاني البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، ويلتمس فيه المستفهِم صفاء ذهن المستمع ليفهم الكلام، ويدرك مغزاه، و هذا الغرض يندرج ضمن العدول بمعناه العام عن أسلوب إلى آخر لتهيئة الأذهان عقلياً ونفسياً وتحفيزها على التفكير في الشيء المستفهم عنه، ومن ثم رسوخه في الذهن، وورد الاستفهام لهذا الغرض في الحديث النبوي الشريف المروي عن ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ » فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» [١].

بدأ النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بسؤال مجازي طرحه على أصحابه بقصد اختبار معلوماتهم وتهيئة أذهانهم إلى ما سيلقى بعد المستفهم عنه، والرسول عليه الصلاة والسلام في هذا المشهد التعليمي آثر إنزال المتلقين الجاهلين بالخبر منزلة المنكرين له، فأورده بمؤكدات ثلاثة – إن، والتكرار، والجملة الاسمية– توخياً لجذب العقول والقلوب نحو محتواه ، فالخروج عن مقتضى الظاهر له دور محفز للإقبال على الكلام ومتابعته، وكذلك يبرز أثر

١ – صحيح البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، ج١/٢٢،رقم الحديث ٦٢

توظيف الصورة التشبيهية المنتزعة من بيئة الصحابة في كد الفكر وإثارة الانتباه ، والتحفز لمعرفة هذه الشجرة ، ولذلك نجد الصحابة بادروا الرسول صلى الله عليه وسلم بسؤال آخر " ماهي" ليخبرهم النبي عن هذه الشجرة، وهنا انتفت دلالة الاستفهام أي طلب الفهم ليصبح الغرض الإفهام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هي النخلة"، وقد كان لتخير التعبير بالتركيب الاسمي أثره في ثبات المشابهة بين المسلم وبين الشجرة ، والتي قيل أنها أشبهت المسلم في كثرة برها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فمن حين أن يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعده يتخذ منه منافع كثيرة من خشبها وورقها وأغصانها، فتستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً، وحصراً وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم ينتفع بنواها علفاً للإبل وغيرها، والمؤمن خير كله من كثر طاعاته ومكارم أخلاقه ومواظبته على عبادته من صلاته وصيامه وقراءته وذكره وصلته وصدقته وسائر الطاعات[١]، وهكذا نجد أن الاستفهام في هذا الحديث النبوي الشريف قد تضافر مع الطابع التصويري ليشكلا قيماً تعبيرية انطوت على التنبيه والتوجيه والتعليم بغرض ترسيخ المفاهيم في العقول وإثارتها في القلوب، و توصيل رسالة مفادها أن خير المؤمن لمجتمعه ولنفسه كخير النخلة لا يجب أن ينقطع

١ – ينظر: شرح البخاري، شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفري، تحقيق: أحمد فتحي عبد الرحمن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت:لبنان،١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ج٢/٩٥.

الخاتمة:

توصل البحث إلى جملة من النتائج هي:

١- تداخلت الأغراض البلاغية للاستفهام في الحديث النبوي الواحد، بحيث شكّل كل غرض نواة لعدة معانٍ بلاغية متداخلة ومترابطة يصعب الفصل بينها ضمن محددات الموقف المقامي ؛ ونظراً لما تقتضيه طبيعة البحث من تحديد، فقد تم الاعتداد بالأغراض كعناوين تفصيلية في البحث اعتماداً على المعنى البلاغي الأبرز بوصفه بؤرة الحدث في الحديث النبوي الشريف.

٢- كل المعاني البلاغية للاستفهام رغم تعددها وتباينها في مسالك التوجيه والتربية والتعليم نجدها قد صدرت عن معنيين أساسيين هما الإثبات والنفي.

٣- لا تنجلي المعاني البلاغية للاستفهام بالوقوف على بنية الاستفهام فقط، بل يجب النظر إلى بنية الاستفهام في ضوء البناء التركيبي والسياق المقامي للحديث النبوي الشريف كاملاً.

٤- اكتسب الاستفهام أهمية بالغة في الحديث النبوي الشريف ؛ كونه من ثوابت الخطاب النبوي المنطوي على الاستثارة الفكرية والنفسية، اللتين تحققان الغاية التعليمية التبليغية التي تصل بالإبلاغ إلى حد الإقناع والتمكين في النفوس.

٥- شكّل الاستفهام في الحديث النبوي الشريف طاقة حجاجية مهمة ساعدت على دمج المتلقين – على اختلاف طرائق تفكيرهم، وتباين نفسياتهم – مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مما أضفى على الحوار متعة وإقناعاً ساعد

على حل المشكلات، وتقريب وجهات النظر، وتصحيح الأخطاء، والوعظ، وغيرها من مواقف اقتضت التوجيه بعد التماس الاستعداد الذهني للمخاطبين، من أجل بلوغ التأثير في النفوس أقصاه.

وفي النهاية: أسأل الله التوفيق والسداد، وتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأسأله جل وعلا الرضى عما أصبت، والصفح عما اجتهدت فزللت، وهو سبحانه معتز بكماله في جلاله، وأن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.

المصادر والمراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، د. ط القاهرة،١٤٢٨هـ-٢٠٠م.
٢. أدب الكاتب، محمد بن عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤. مصر: مطبعة السعادة، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.
٣. إرْشَادُ السَّارِي لِشرح صَحِيح البخَاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين ، ط٧،، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ١٣٢٣ هـ.
٤. الأمالي، ابن الشجري هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة، تحقبق: محمود محمد الطحاني، مكتبة الخانجي: القاهرة، د.ت.
٥. الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل: بيروت ط٣،د.ت.
٦. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب، د.ت.
٧. تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان،١٤٠٤هـ-١٩٨٤م
٨. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان: بيروت، ١٩٨٥م.
٩. جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني،، د. ط، دار الحديث، القاهرة،٢٠٠٥م.

١٠. جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب د. ط، ٢٠٠٥م

١١. جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، علاء الدين الاربلي، تحقيق: حامد احمد نيل، مطبعة السعادة: القاهرة، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

١٢. دروس في البلاغة العربية، الأزهر الزناد، نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٢م

١٣. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأَه وعلَّق عليه محمود محمد شاكر، القاهرة،، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة، بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

١٤. شرح البخاري، شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفري، تحقيق: أحمد فتحي عبد الرحمن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان،١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٥. شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ، أحمد بن محمد، نشرها أحمد أمين، ط١،لجنة التأليف، د.ت.

١٦. شرح المفصل، موفق الدين بن علي بن يعيش الموصلي، قدم له ووضع هوامشه: إميل يعقوب،ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، د.ت.

١٧. الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، تحقيق: فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت: لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٨م.

١٨. صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ.

١٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت.

٢٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز دار المعرفة: بيروت، د.ت.

٢١. الفروق اللغوية، الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت: لبنان، ط،١٩٩٧م.

٢٢. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، ط٣، دار صادر: بيروت، ١٤١٤ هـ.

٢٣. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي: مصر، ١٤٠٢هـ-١٩٨١م

٢٤. مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، ط٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٥. من بلاغة النظم العربي: دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.